تاريخ وسيرة رسول الله ﷺ في عيون المنصفين من المستشرقين والمهتدين إلى الإسلام[1]

حسن خدايار ناصري[2]

المقدمة

عندما نتأمّل فيما كتبه غير المسلمين عن سيرة الرسول محمّد ﷺ وتاريخه والدين الذي بُعث به من السماء، نجد مواقفهم منه مختلفة، فهي إمّا إيجابيّة نسبيًّا وإمّا سلبيّة. وفي هذه الدراسة سنعرض للمواقف الإيجابيّة من خلال فريقين: فريق أشاد بشخصيّة الرسول ﷺ، وإن لم يؤمن به وبنبوّته، ولا صدّق برسالته، وفريق أشاد بشخصيّة الرسول ﷺ ودافع عن ملّته، بعد أن آمن به وبنبوّته، وتخلّى بصفة نهائيّة عن يهوديّته ونصرانيّته.

أوّلًا: الشخصيّة الإنسانية لرسول الله ﷺ في نظر بعض المستشرقين

لقد اتّسم موقف اليهود والنّصارى من النبيّ ﷺ في الغالب – وطيلة القرون الوسطى – بالتعصُّب والتشنُّج، والانفعال والحقد والكراهية. ولما جاء عصر الإصلاح الدينيّ في أوروبا، وفيما بعد خلال عصر التنوير والنهضة وانفصال الدين عن الدولة، وحتى القرن العشرين؛ ظهرت على المسرح العالميّ فئة منهم كانت لها أفكار معتدلة موضوعيّة ومنصفة، ومواقف إيجابيّة من الرسول ﷺ. نذكر من بينهم على سبيل المثال لا الحصر:

---

١. المغناوي، سعيد، قراءة في ضوء كتاب شخصيّة رسول الله ﷺ بين تصوير الوحي وتصوّرات الدارسين.

٢. باحث في التاريخ الإسلامي.

١. توماس كارليل

مستشرق إنجليزيّ، وُلد باسْكوتْلاندة سنة (١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م)، وتوفّي سنة (١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م). قال في كتابه (الأبطال وعبادة البطولة)[١]: «لقد أصبح من أكبر العار على أيّ فرد مُتمدن من أبناء هذا العصر، أن يُصغي إلى ما يُظنّ، من أنّ دين الإسلام كذب، وأنّ محمّدًا خدَّاع مزوّر. وآنَ لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة. فإنّ الرسالة التي أدّاها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير مدّة اثني عشر قرنًا، لنحو مئتي مليون من الناس أمثالنا، خلقهم الله الذي خلقنا... وعلى ذلك فلسنا نعدّ محمّدًا هذا رجلًا كاذبًا متصنّعًا قطّ، يتذرع بالحيل والوسائل إلى بُغية، أو يطمح إلى درجة ملك أو سلطان أو غير ذلك من الحقائر والصغائر. وما الرسالة التي أدّاها إلّا حقًّا صراحًا، وما كلمته إلّا صوتًا صادقًا، صادرًا من العالم المجهول. كلَّا، ما محمّد بالكاذب ولا الملفّق، وإنّما هو قطعة من الحياة، قد تفطَّر عنها قلب الطبيعة، فإذا هي شهاب قد أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»[٢].

٢. ليون تولستوي

كاتب وفيلسوف روسيّ، وُلد سنة (١٢٤٤هـ/ ١٨٢٨م)، وتوفّي سنة (١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م). قال في كتابه (حِكَم النبيّ محمّد)[٣]: «ومما لا ريب فيه، أنّ النبيّ محمّدًا من عظام

---

١. جاء في كلمة محمد السباعي، مُعرّب هذا الكتاب، ما نصّه: «أمّا بعد، فهذا كتاب الأبطال وعبادة البطولة، وضعه الكاتب كارليل... وأحسن ما جاء في ذلك الكتاب، فصل عن المصطفى ﷺ، وكان الرسول ﷺ قبل ذلك، هدفًا لأقلام الكثيرين من الغربيين، (ولا سيما أهل القرن الثامن عشر)، قرن فولتير، أعني قرن الإلحاد والكفر، يرمونه جهلًا وكنودًا بقواذع الهجاء وقواذف الذم. قال ريتشارد جازيت: فلما كتب كارليل مقالته عن الإسلام بنافح فيها عن محمّد ويناضل دونه، لم يبقَ هجّاء أطلق يده في عرض محمّد (عليه السلام)، إلّا قبضها مجذومة شلّاء، ولا فحّاش يُدرّي ذلك الأديم الأملس وتلك الصحيفة البيضاء بسهام السُباب، إلا ورُدّت سهامه في نحره. حتى راح شرف النبيّ ﷺ في تلك الديار، بفضل الفيلسوف الأكبر، صحيح الأديم موفور الجانب...».

٢. كارليل، الأبطال وعبادة البطولة، ٤٩-٥٢.

٣. قال عبد المعين الملوحي في تقديمه لكتاب تولستوي: «يمكن اعتبار هذا الكتاب، من أوائل الكتب التي أنصفت

الرجـال المصلحين الذين خدموا الهيئـة الاجتماعيّة خدمة جليلة، ويكفيه فخـرًا أنّه هدى أمّة برمّتها إلى نور الحقّ، وجعلها تجنح للسـكينة والسلام وتُفضّل عيشة الزهد، ومنعها عن سفك الدماء وتقديم الضحايا البشريّـة، وفتح لها طريق الرُقيّ والمدنية. وهو عمل عظيم، لا يقوم به إلّا شخص أوتي قوّة. ورجل مثل هذا، جدير بالاحترام والإكرام»[١].

٣. إميل درمنغم

مستشرق فرنسيّ. قال في كتابه (حياة محمّد)[٢]، الذي صدرت طبعته الأولى سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م)[٣]: «ولا يستطيع أحد أن يشكّ اليوم في إخلاص محمّد، فحياة محمّد شاهدة على اعتقاده صدق رسالته التي حمل أمانتها الثقيلة ببطولة، وإنّ قوة إبداعه وعبقريّته الراسعة وذكاءه العظيم، وبصره النافذ الحديد، وقدرته على ضبط نفسه، وعزمه المكين، وحذره وحسن تدبيره، ونشاطه وطراز عيشـه؛ مما يمنع عدَّ ذلك الموحـى إليه الموهوب الجليّ، مبتلى بالـصَّرع»[٤]. وقال أيضًا:

الإسـلام، ودعت إلى إنصافه، وإلى التآخي بين الأديان ولا سـيّما المسـيحيّة والإسلام، على لسان بعض المنصفين من الكتّاب الروس أوّلًا، وعلى لسـان سليم قبعين المسـيحي الأرثوذكسي ثانيًا». وجاء في كلمة سليم قبعين مُعرّب هذا الكتاب، ما نصّه: «رأى الفيلسوف (يعني تولستوي) تحامل جمعيات المبشرين في قازان، من أعمال روسيا، على الدين الإسلامي، ونسبتها إلى صاحب الشريعة الإسلامية أمورًا تنافي الحقيقة، تُصوّر للروسيين تلك الديانة وأعمال صاحب تلك الشريعة بصورة غير صورتها الحقيقية. فهزّته الغيرة على الحقّ إلى وضع رسالة صغيرة، اختار فيها عدة أحاديث من أحاديث النبيّ محمّد عليه السـلام، ذكرها بعد مقدّمة جليلة الشـأن واضحة البرهان. وقال: هذه تعاليم صاحب الشريعة الإسـلاميّة، وهي عبارة عن حِكَم عالية، ومواعظ سامية تقود الإنسـان إلى سواء السبيل، ولا تقلّ في شيء عن تعاليم الديانة المسيحيّة».

١. تولستوي، حكم النبيّ محمد، ٦٤.

٢. قـال عمر أبو نصر، في هامـش ص٤٤، من كتابه (محمّد بن عبد الله وآراء مشـاهير كتّاب الغرب في رسـالته ونبوّته والإسـلام): «إميل درمنغم من كتّاب الفرنسيّس، أقام ببلاد المغرب وخالط المسـلمين فيها، وهو من كتّاب الغرب المخلصـين، العادلين في أحكامهم. وكتابه الأخير عـن حياة محمّد، آية في الاعتدال والإخـلاص، مع أنّه كاثوليكيّ متعصّب لدينه»

٣. انظر: العقيقي، المستشرقون، ١: ٣٤٨.

٤. درمنغم، حياة محمد، ٢٤٤.

«وكانت هفوات النبيّ نفسها، تدلّ على أن عظمته الحقيقية أتته من الله، ومن وحي الله إليه»[١].

٤. كلود كاهن

مستشرق فرنسيّ معاصر، وُلد سنة (١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م). قال في كتابه (تاريخ العرب والشعوب الإسلاميّة): «ولا يليق بالمؤرّخ المنصف أن يعير اهتمامه للاتهامات التي صدرت عن المهاترات الطائفيّة القديمة، ولا أن يقنع بتلك الشروح والتعليلات الصبيانيّة، التي ترى في الرسالة الدينيّة نتيجة من نتائج مرض الصرع. بل إنّه يبدو لهذا المؤرّخ المنصف، أن محمّدًا كان في عداد الشخصيّات النبيلة الساميّة، التي سعت في كثير من الحماس والإخلاص، إلى النهوض بالبيئة التي عاش فيها أخلاقيًّا وفكريًّا»[٢]. وقال أيضًا: «وحتّم علينا، أن نلقى محمّدًا بعواطف الإجلال والاحترام، لما تحلَّى به من سموّ الإلهام، ومن قدرة على تذليل العقبات الإنسانيّة عامّة، والتغلّب على مصاعبه الشخصيّة خاصّة. وربما أثارت فينا بعض جوانب حياته شيئًا من الارتباك، تبعًا لعقليّتنا المعاصرة. فقد أكّدت المهاترات، على شهوات الرسول الدنيويّة، وألمحت إلى زوجاته التسع اللائي اتّخذهنّ بعد وفاة خديجة. لكن الثابت، أنّ معظم هذه الصِلات الزوجيّة قد طبعت بطابع سياسيّ، وأنّها استهدفت الحصول على ولاء بعض الأشراف أو بعض الأفخاذ»[٣].

٥. كونستانس جيورجيو

مستشرق رومانيّ معاصر، وُلد سنة (١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م)، وتخرّج من جامعة بوخارست في العلوم الفلسفيّة، وتولّى منصب وزير الخارجيّة الرومانيّة. قال في كتابه (نظرة جديدة في سيرة رسول الله): «لم يكن بعض الكتّاب الغربيّين على اطلاع بوضع حياة العرب قبل الإسلام، فذكروا أنّ محمّدًا رَكَنَ إلى حياة الدّعة والرفاهية بعد زواجه هذا (أي من خديجة). لكن الحقيقة،

١. م. ن، ٢٤٥.

٢. كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلاميّة منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطوريّة العثمانيّة، ١٤.

٣. م. ن، ١٤.

أنّ حياتـه كلّها لم يعتورْها شيء من علائم النعمة... ويعجبـون من العرب، إذ كيف يعتقدون بمحمّد نبيًّا لهذا الكلام؟ ولا سـيّما أنّ القرآن، كغيره من الكتب السـماويّة، ذو أسلوب خاصّ بارز. ويلقى قارئه عددًا من الجمل المكرّرة، وتكرار الجمل بنظر الفرنسيّ أو الإنجليزيّ يقلّل من أهمّيّة الإيقاع الأسـلوبيّ. أمّا من يجيد اللغة العربيّة، فإنّه عندما يقرأ الآية من سورة العلق، بعد قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، يُقدّر المغزى البلاغيّ المؤثّر في نفسه»[1]. وقال أيضًا: «ويصادف المرء غير المتحيّز، أمورًا في رسـالة محمّد تسترعي الانتباه. من ذلك أن رسالة محمّد لم تكن دينيّة فقـط، بل كانـت إلى جانب ذلك اجتماعيّـة واقتصاديّة...»[2]. وقال في آخـر صفحة من كتابه: «وهكذا مات محمّد رسول الله، أعظم رجال الدنيا قاطبة»[3].

٦. نظمي لوقا

مفكّر وأديب مصريّ معاصر، مسـيحيّ العقيدة. قال في كتابه (محمّد الرسالة والرسول): «ولسـت أُنكر أن بواعث كثيرة في صِبـاي، قرّبت بيني وبين هذا الرسـول، وليس في نيّتي أن أُنكـر هذا الحبّ أو أتنكّر له. بل إنّي لأشرف به، وأحمد له بـوادره وعُقباه... ولعلّ هذا الحبّ، هو الذي يسّر لي شـيئًا من التفهُّم. وزيّن لي من شـخص هذا الرسـول الكريم، تلك الصفات المشرّفـة. وجعلني أعرض بوجداني، عن تلك النظرة الجائـرة أو المتجنّية، التي نظر بها كثيرون من المستشرقين وغيرهم إلى الرسول العربيّ. ولكنّي حين أحتكم إلى العقل، أرى الخير كلّ الخير فيما جنحتُ إليه»[4]. وقال أيضًا: «من لم يكن صادقًا في دعواه فهو دعيّ، لا يسـلم من أعراض الادّعـاء مهما تصنّع الصدق. وتجتمع أعـراض الادعاء، في انتحال صفة أو قدرة أو حقّ، ليس للمرء حقيقته. وما كذلك كان أبو القاسم، لم يزعم لنفسه قدرة أو صفة أو حقًّا يستعلي بها على أحد، أو يرتّب لنفسه بها سلطانًا أو تقديمًا. ولو كان القرآن من صنعه، ما حرص على أن يكون فيه كآحاد الناس لا يزيد. ليس عليه إلّا البلاغ»[5].

---

١. كونستانس، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، ٤٨-٥٩.

٢. م. ن، ٧٠-٧١.

٣. م. ن، ٣٨٧.

٤. لوقا، محمّد الرسالة والرسول، ٨-٩.

٥. م. ن، ١١٩.

وقال في آخر صفحة من هذا الكتاب: «وما صدق بشر، إن لم يكن هذا الرسول بالصادق الأمين... فسلام عليه ما هدى من سبيل، وما قوّم من نهج، وما بيّن من محجّة... وسلام على الصادقين»[١]. وقال في كتابه (أنا والإسلام): «لم أكن داعية للإسلام بما كتبته عنه، بل كنت مسيحيًّا أنفّذ ما تمليه عليّ مبادىء الأخلاق المسيحيّة، وبمنظور عقليّ إنسانيّ حضاريّ. ولئن كنت أنصفت الإسلام، فليس ذلك من منطلق التخلّي عن مسيحيّتي، بل من منطلق الإخلاص لها والتمسُّك بجوهرها وأخلاقيّاتها»[٢].

هذه بعض المواقف الإيجابيّة اتجاه الرسول ﷺ، التي صدرت عن كتّاب غير مسلمين. ومن أراد الاطلاع على المزيد منها، يمكنه الرجوع إلى تلك الكتب التي جمعت جزءًا كبيرًا منها، مثل كتاب (محمّد ﷺ عند علماء الغرب) للشيخ خليل ياسين، وكتاب (الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة) لمحمّد شريف الشيباني. فقد وردت فيهما أقوال منصفة لرسول الله ﷺ، منسوبة لعدد كبير من المستشرقين وغيرهم. نذكر منهم[٣]، على سبيل المثال:

- غليوم بوستل (Postel) الفرنسيّ (ت ٩٨٩هـ/ ١٥٨١م)، ورينه ديكارت (Descartes)

---

١. لوقا، أنا والإسلام، ١٣٩.

٢. م. ن، ١٦.

٣. انظر أقوالهم المنصفة لرسول الله ﷺ في كتاب (محمّد ﷺ عند علماء الغرب) للشيخ خليل ياسين، الصفحات: ٨٦، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٥، ١٠٧، ١١١، ١١٣، ١١٦، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٩، ١٦٣، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٨، ١٨١، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٤، ١٩٩، ٢٠١؛ وفي كتاب (الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقية المنصفة) لمحمد شريف الشيباني، الصفحات: ٥١، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٣، ٩٤، ١٦٢، ٢٣٢، ٢٤٦، ٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٨١، ٣٠٤، ٣٠٥، ٣٠٦، ٣٠٧، ٣٢٣، ٣٨٦، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٩، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٥٤، ٤٧١. وانظر تراجمهم في كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي: ١: ١٥٨، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٩، ١٨٠، ١٩١، ٢٣٨ و٢: ٦٥، ٧٦، ٧٧، ٨٤، ٩٥، ١٣٢، ١٩٤، ٣٠٨، ٣١٥، ٣١٦، ٣٧٤، ٣٩١، ٤١٨ و٣: ١٥، ١٣١، ٢٩٣؛ وفي (معجم المؤلفين) لعمر رضا كحالة: ١: ٤٠٢، ٤٢٧، ٤٤٨، ٤٥١، ٤٨١، ٧١٦، ٨١٠ و٢: ٦٥٩، ٦٧٣ و٣: ١٧؛ وفي (المنجد في الأدب والعلوم) لفردينان توتل، الصفحات: ٨٩، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٣٨، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٩٤، ٤٥٧، ٤٦٢، ٤٧٠، ٥٢٤، ٥٤١.

الفرنسيّ (ت ١٠٦٠هـ/ ١٦٥٠م)، وبارتلمي ديربيلو (d'Herbelot) الفرنسيّ (ت ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م).

- وافرونسوا فولتير (Voltaire) الفرنسيّ (ت ١١٩٢هـ/ ١٧٧٨م)، وجان ميكائيليس (Michaelis) الروسيّ (ت ١٢٠٦هـ/ ١٧٩١م)، وغوستاف الثالث (Gustave) الأسوجي[١] (ت ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م).
- وغوتيه (Goethe) الألمانيّ (ت ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م)، والبارون دي ساسي (Sacy) الفرنسيّ (ت ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م)، وجول لابوم (Jules Labeaume) الفرنسيّ (ت ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م)، وألفونس دي لامارتين (Lamartine) الفرنسيّ (ت ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م)، ولويس سيديو (Sedillot) الفرنسيّ (ت ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م أو ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م)، ودي سلان (Slane) الفرنسيّ (ت ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م أو ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م)، وإدوار هنري بالمر (Palmer) الإنجليزيّ (ت ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، وكارل ماركس (Marx) الألماني (ت ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م)، ورينهارت دوزي (Dozy) الهولنديّ (ت ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م أو ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م)، وفيكتور هوغو (Hugo) الفرنسيّ (ت ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م)، وأرنست رينان (Renan) الفرنسيّ (ت ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م أو ١٣١١هـ/ ١٨٩٣م)، وأوجست موللر (Aug. Muller) الألمانيّ (ت ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م أو ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م)، وفث (Veth) الهولنديّ (ت ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م أو ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م).
- وإلياس جون جيب (Gibb) الإنجليزيّ (ت ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م أو ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)، وفريدريخ دي تريش (Dieterich) الألمانيّ (ت ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)[٢]،

---

١. الاسوجي: نسبة إلى (أسوج)، وهي بلاد السويد (Suede)، المملكة السكاندينافيّة الواقعة بين النرويج وبحر البلطيك. (انظر: توتل، المنجد في الأدب والعلوم، ٢٢).

٢. وقيل: توفّي سنة ١٨٨٨م. انظر: ياسين، محمد ﷺ عند علماء الغرب، ١٤٧؛ توتل، المنجد في الأدب والعلوم، ٢٠٣.

وفـان فلوتن (Vloten Van) الهولنديّ (ت ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م)[١]، وصموئيل زويمر (Zwemer) الإنجليـزيّ (ت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وجرجي زيدان اللبنانيّ المسـيحيّ (ت ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م)، وشـبلي شميل اللبنانيّ المسيحيّ (ت ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م)، وماكس فان بيرشـم (Berchem) السويسريّ (ت ١٣٤٠هـ/ ١٩٢١م)، وكليمان هوار (Huart) الفرنسيّ (ت ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، وتيودور نولدكه (Noldeke) الألمانيّ (ت ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)[٢]، والسير توماس أرنولد (Sir Thomas Arnold) الإنجليزيّ (ت ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م)، وغوستاف لوبون (Lebon) الفرنسيّ (ت ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، ومحبوب الخوري الشرتوني اللبنانيّ المسـيحيّ (ت ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م)، هنريخ بيكر (Becker) الألمانيّ (ت ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م أو ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، وسنوك هرغرونجه (Snouck) الهولنـديّ (ت ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م)، والأب هنري لامنس (Lammens) البلجيكـيّ (ت ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م)، وصموئيـل مارغوليـوث (Margoliouth) الإنجليزيّ (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)، وأمين الريحاني اللبنانيّ المسيحيّ (ت ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م)، وقُسـطاكي الحمصيّ السوريّ المسـيحيّ (ت ١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م)، وآسين بلاسـيوس (Palacios) الإسـبانيّ (ت ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م)، وجـوزي بندلي المقدسيّ الروسيّ (ت ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م)، وبرنارد شو الإيرلنديّ (ت ١٣٧٠هـ/ ١٩٥٠م)، والبارون كارا دي فو (Carra de Vaux) الفرنسيّ (ت ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م)[٣]، وجواهر لال نهرو (Nehru) الهنديّ (ت ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م)، ولبيب الرياشي اللبنانيّ المسيحيّ (ت ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م)، وبشـارة الخوري (الأخطل الصغير) اللبنانيّ المسـيحيّ (ت

---

١. وقيل: توفّي سـنة (١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م). انظر: الشـيباني، الرسول ﷺ في الدراسات الاسـتشراقيّة المنصفة، ١٦٢؛ محمد ﷺ عند علماء الغرب، ١٣١.

٢. وقيل: توفّي سنة (١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م). انظر: الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، ٢٥٦؛ محمد ﷺ عند علماء الغرب، ١٤٣.

٣. وقيل: توفّي سـنة (١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م) أو سـنة (١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م). انظر: محمـد ﷺ عند علماء الغرب، ١٧٨. الرسول ﷺ في الدراسات الاستشراقيّة المنصفة، ٢٥٣-٢٥٤.

١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م)، وبولس سلامة اللبنانيّ المسيحيّ (ت ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م)، وواشنطن ايرفنج (Irving) الأمريكيّ (ق ١٣هـ/ ق١٩م – ق١٤هـ/ ق٢٠م)، ورشيد سليم الخوري (الشاعر القروي) اللبنانيّ المسيحيّ (ق١٤هـ/ ق٢٠م)، ومونتغمري وات (Montgomery watt) الإنجليزيّ (ق١٤هـ/ ق٢٠م)، والكولونيل بودلي الإنجليزيّ (ق١٤هـ/ ق٢٠م).

وقفة وتأمّل

لكن، هل هؤلاء جميعًا كانوا منصفين برسول الله ﷺ؟ لا أظنّ ذلك، لأنّ منهم من تناقض مع نفسه، فأنصف النبيّ ﷺ وأساء إليه، ومنهم من جرّده من نبوّته، فاعتبره بطلًا ومصلحًا وعظيمًا وزعيمًا، دون أن يعترف بأنّه قد أوحي إليه كما أوحي إلى غيره:

– فتوماس كارليل – مثلًا – الذي قيل عنه، أنّه كتب عن الإسلام ينافح عن محمّد ﷺ ويناضل دونه[1]. قد اعتبر الوحي المحمّديّ تخيّلًا، فقال: «وقد أتخيّل روح محمّد الحادّة الناريّة، وهي تتململ طول الليل الساهر، يطفو بها الوجد ويرسب، وتدور بها دوّامات الفكر. حتى إذا أسفرت لها بارقة، رأى حسّيّته نورًا هبط عليها من السماء، وكلّ عزم مقدّس يهمّ به يخاله جبريل ووحيه»[2].

ثمّ اعترف بأنّ الذي أباحه الرسول ﷺ مما تحرّمه المسيحيّة، لم يكن من تلقاء نفسه، إلّا أنّه لم ينسب أمر الإباحة إلى الله سبحانه، بل قال: «وإنّما كان جاريًا متّبعًا لدى العرب من قديم الأزل. وقد قلّل محمّد هذه الأشياء جهده، وجعل عليها من الحدود ما كان في إمكانه أن يجعل»[3].

وقد «عاب كارليل على القرآن نقص الترتيب فيه، ويزعم أنّه ليس مرتّب الفكر، ولا منطقيًّا، وبه تكرار»[4]. وقالت كارين أمسترونج: «وهكذا فعل توماس كارلايل عام ١٨٤١م في محاضرته

---

١. انظر: هامش ص١١٣٠ من هذا البحث.

٢. كارليل، الأبطال وعبادة البطولة، ٧٦.

٣. م. ن، ٧٩.

٤. الجبري، السيرة النبويّة وأوهام المستشرقين، ١٣١.

عن النبيّ محمّد، والتي كان عنوانها (البطل باعتباره نبيًّا)، إذ أعلن رفضه وازدراءه للقرآن. ومع ذلك، فقد كانت تلك المحاضرة دفاعًا مشبوبًا عن محمّد، وإنكارًا للوهم القروسطيّ القديم. لقد كان كارلايل ولأوّل مرّة تقريبًا في أوروبا، يحاول أن يرى محمّدًا باعتباره صاحب دين حقيقيّ، حتى في غضون استهانته بالقرآن واعتباره أكثر كتاب يبعث على الملل في العالم، إذ يقول: (إنّه خليط غير مترابط يرهق القارئ، غليظ النّسج، ركيك التركيب، غاصّ بالتكرار وبالإسهاب والمعاضلات التي لا تنتهي. وباختصار، فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذي لا يطاق)»[1].

– وتوماس أرلوند، الذي قيل عنه إنّه عالم ضليع محقّق منصف[2]، وقيل إنّ كبار الدعاة إلى الله من الكتّاب المشهورين، وأساتذة الجامعات المعدودين كانوا يكثرون في محاضراتهم وكتبهم من الاستدلال بأقواله عندما يتحدّثون عن سماحة الإسلام وعدله[3]. قد نسب أمر تحويل القبلة إلى الرسول ﷺ، فقال: «وكان المصلّون قد تعوَّدوا في العهد الأوّل أن يُولّوا وجوههم شطر بيت المقدس، وربما كان المقصود من ذلك استمالة اليهود. وقد حاول محمّد استرضاءهم بوسائل أخرى كثيرة، فدأب على الاستشهاد بكتبهم المقدّسة... فلما أن أخفقت آماله في استمالتهم إليه، وأصبح من الواضح أنّ اليهود لا يقبلون محمّدًا نبيًّا لهم، أمر صحابته بأن يولّوا وجوههم شطر الكعبة بمكّة (البقرة: ١٤٤). وكان لتحويل القبلة مغزى أبعد مما قد يبدو لأوّل وهلة، إذ كان ذلك في الواقع بداية الحياة القوميّة في الإسلام»[4]. ثم شكّك في عموم الدعوة الإسلاميّة لجميع الناس، وفي الرسائل التي بعثها الرسول ﷺ إلى الملوك، فقال: «ولكي تكون هذه الدعوة عامّة، وتُحدِث أثرها المنشود في جميع الناس وفي جميع الشعوب، نراها تتخذ صورة عمليّة في الكتب التي

---

١. أمسترونج، سيرة النبيّ محمد، ٥٩.

٢. قال حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين وإسماعيل النجراوي، في ص٥ من مقدمة ترجمتهم العربية، لكتاب (الدعوة إلى الإسلام) لتوماس أرنولد: «كان سير توماس أرنولد، فوق ما امتاز به من صفات العالم الضليع المحقق المنصف، مثالًا للوداعة والتواضع وهدوء النفس، وحلاوة الحديث وطيب العشرة».

٣. زين العابدين، دراسات في السيرة النبويّة، ١٣٩.

٤. أرلوند، الدعوة إلى الإسلام، ٤٧.

قيل إنّ محمّدًا بعث بها في السنة السادسة من الهجرة (٦٨٨م) إلى عظماء ملوك ذلك العصر»[١].

– وإميل درمنغم الذي قيل إنّه من كتّاب الغرب المخلصين العادلين في أحكامهم، وأنّ كتابه عن حياة محمّد ﷺ آية في الاعتدال والإخلاص[٢]. أشار محمّد عادل زعيتر، في مقدّمة ترجمته لكتاب (حياة محمّد)، إلى بعض أخطائه فقال: «والمؤلّف مع ما ساده من حسن النيّة، لم تخلُ سوانحه وآراؤه من زلّات»[٣]. ومن هذه الزلّات، قوله: «وقد اقتُطفتْ أقوال من التوراة والإنجيل وأُسندت إلى محمّد، وقد عُزي إليه ما يدحض به بعض المذاهب النصرانيّة، وقد نُسب إليه ما يُشكّ فيه من المعجزات، وهو الذي لم يقل إنّه جاء بها»[٤]. وقوله: «وقد تسرّبت في سيرة محمّد عوامل الميل والهوى مع الزمن... وقد جدَّد المعاصرون (محمّد عبده وتلاميذه في مصر، وسيد أمير علي والمجلّة الإسلامية في الهند) الدراسات الإسلاميّة، ولكن مع تحريف قليل في سيرة النبيّ، وجعلها مثالًا يُحتذى، ووضعها في قالب ملائم لروح الوقت. وذلك، مع تحدّثهم عن عيسى بحرّيّة لم يُردها النبيّ»[٥]. وقوله: «أخذ محمّد يتحنّث كما رأى زهّاد النّصارى ونسّاكهم يصنعون»[٦]. وقوله: «وقد علم محمّد من نصارى الشام أو مكّة وجود دين موحى به...»[٧].

– وليوس يونغ، الذي وُصف بأنّه محبّ للعرب أو محبّ للحقيقة[٨]، عرّف عبد السلام العجيلي بكتابه (العرب وأوروبا)، فذكر مزاياه وسلبيّاته في (التقديم) الذي صُدِّرت به الترجمة العربيّة لهذا الكتاب، فقال: «لقد كانت حصيلتي العلميّة من قراءة كتاب (العرب وأوروبا)

١. م. ن، ٤٨.

٢. انظر: هامش ص١١٣ من هذا البحث.

٣. درمنغم، حياة محمّد، (د)، من «مقدّمة المترجم».

٤. م. ن، (هـ) - (ح)، من المقدّمة.

٥. م. ن، (هـ) - (ح)، من المقدمة.

٦. م. ن، ٥٠.

٧. م. ن، ٥٦.

٨. قال عبد السلام العجيليّ، في تقديمه للترجمة العربيّة لكتاب لويس يونغ (العرب وأوروبا): «حين وُضعت بين يدي هذه الترجمة لكتاب الأستاذ الدكتور لويس يونغ (العرب وأوروبا)، وُصف لي مؤلّفه بأنّه محبّ للعرب. وكان هذا كافيًا ليغريني بقراءة الكتاب بغية التعرُّف على كاتبه...». انظر: يونغ، العرب وأوروبا، ٥ – ٦.

كبيرة. ومن الناحية الأخرى، تبيّن لي أنّه من الأجدر أن يُوصف الأستاذ يونغ بأنّه محبّ للحقيقة أكثر منه محبًّا للعرب. لست أقول هذا لأُنكر تعاطف المؤلِّف مع العرب، ولكني أقوله تقديرًا لموضوعيّة هذا العالِم، وقُدرته على التخلُّص من الأحكام المسبقة، وجهده في تحرِّي الحقائق والمجاهرة بها، متحدّيًا ما ران على الأذهان في الغرب طوال قرون كثيرة. ولست أدري، فلعلّ تعاطف صاحب هذا الكتاب مع تاريخ الحضارة العربيّة، ما جاء إلّا من تعلّقه بالحقائق العلميّة وتعصّبه لها، واستنكاره لأن تظلّ مطموسة أو مستهانًا بها. وأرجو أن لا يتوقّع القارىء مما أوردته، أن يجد الكتاب الذي نحن بصدده مكرّسًا لتمجيد التراث العربيّ، وأصحاب هذا التراث، أو لتفنيد المطاعن الموجهة إليه وإليهم. فليس هذا موضوعه، ولا ألّفه صاحبه بهذه الغاية. إنّما هو أثر قصد به دراسة العلاقات التي قامت بين العرب وشعوب أوروبا في الغابر والحاضر، والتأثيرات المتبادلة بين هذين القطبين في مختلف المجلّات الإنسانيّة. وهي دراسة فيما أحسب مبتكرة، من حيث تركّزها في عمل علميّ واحد مستفيض وشامل. وهي دراسة منصفة من حيث تجرّدها من تأثيرات العصبيّة العنصريّة والتعصّب القوميّ... وهذه الصفة التي تميّز بها كتاب الدكتور يونغ، تسوقنا إلى أن نعطيه قيمة خاصّة، معترفين بأهمّيّته، لا من حيث الفائدة التي نجنيها، نحن القرّاء العرب، من المعارف التي يعطينا إيّاها فحسب، بل من حيث اطّلاع الغربيّين على هذه المعارف واقتناعهم بخطرها. كما أنّ هذه الصفة نفسها، تصلح لتُساق كتفسير أو كتبرير إلى ما قد يأخذه القارىء العربيّ على بعض ما يحتوي الكتاب، من أمور تعتبر بالنسبة إلينا في حكم الأوّليّات المفروغ من صحّتها، أو من المعلومات التي لا جِدَة فيها. فكثير مما نعتبره نحن بديهيًّا، يحتاج بالنسبة إلى الإنسان الأوروبيّ، إلى أن يقام على صحّته البرهان. وذلك، لما غُرس في نفس ذلك الإنسان من ثانويّة الحضارة العربيّة أو هزالها، أو بُعدها عن الأصالة والإبداع»[1].

ومما نأخذه نحن على لويس يونغ -مثلًا- قوله: «وُلد النبيّ محمّد في مكّة حوالي ٥٧٠م. وهو ابن عبد الله، من الأسرة الهاشميّة التي كانت تنتمي إلى قبيلة قريش. وعندما قارب

١. م. ن، ٥-٧ (التقديم).

الأربعين، أظهر ميلًا للتأمُّل الدينيّ، متأثرًا بفكر وطقوس الديانتين المسيحيّة واليهوديّة»[١].

وقوله: «والجهاد في سبيل الله بدوره، أحد الأركان الهامّة في رسالة النبيّ محمّد. وبصفته رئيسًا للمجتمع الإسلاميّ، فقد أباح الدفاع عنه وعن معتقداته بقوّة السلاح...»[٢].

-وبودلي، الذي قال في مقدّمة كتابه (الرسول: حياة محمّد) أنّه بذل عناية خاصّة في المحافظة على دقّة الحقائق، وأنّه بذل ما في وسعه ليتجنّب سوء العرض الذي يجنح إليه المتعصّبون المسيحيّون[٣]. قد أساء إلى الرسول ﷺ غير ما مرّة، فقال في (الفصل الرابع) -مثلًا- الذي تحدّث فيه عن (الوحي) حسب زعمه: «وكان ورقة أوّل من عضّد محمّدًا لمّا استولت عليه فكرة الرسالة... وكان معظم ما عرفه محمّد عن التوراة والتلمود والإنجيل، نتيجة محاورات محمّد وورقة، وما الْتقطَتْه أُذناه في رحلاته...»[٤]. وقال بعد ذلك: «ما كان محمّد حتى ذلك الوقت ليفكّر جدّيًّا في طقوس الكعبة الدينيّة، وكان وزوجه وثنيّين بحكم التقاليد، يعبدان الله وشركاءه اللات والآلهة الأخرى...»[٥].

-وكلود كاهن، الذي قيل عنه إنّه مستشرق كبير مُعتَرَفٌ به كمرجع ثقة في التاريخ الإسلاميّ على صعيد عالميّ. قد أساء إلى النبيّ ﷺ بقوله: «ورغب محمّد في أن يناصره يهود المدينة. ولما تبدّد هذا الأمل، أخذهم بمزيج من المصانعة والعنف عن طريق القتال والتهجير، حتى تمّ له قيام جماعة منسجمة داخل المدينة»[٦].

فمثل هؤلاء، لا يمكن أن نعتبرهم منصفين، فقد بيّن لنا الدكتور محمّد الدسوقي حقيقة أمرهم، فقال: «طائفة من المستشرقين يعلنون في دراساتهم أنّهم موضوعيّون، ويحرصون على تقديم معلومات صحيحة. وهؤلاء قد يذكرون بعض الجوانب الإيجابيّة المتعلّقة بالإسلام

---

١. م. ن، ٢٧.

٢. م. ن، ٣٠.

٣. بودلي، الرسول: حياة محمّد، ٧.

٤. م. ن، ٥٣.

٥. م. ن، ٥٣.

٦. كاهن، تاريخ العرب والشعوب الإسلاميّة، ١٣.

وحضارته الإنسانيّة، مما قد يعطي انطباعًا لدى القارىء –مسلمًا أو غير مسلم- بأنّ الباحث موضوعيّ. ولكن النظر الفاحص في دراسات هؤلاء، يكشف عن كثير من الأغاليط والأوهام التي قد لا يتفطّن إليها قارىء حصيف، فيحملها من لا يحسن النظر محمل الصحّة ويشيعها بين الناس وكأنّها حقّ لا مرية فيه. إنّ هؤلاء الذين تستّروا تحت رداء العلميّة والموضوعيّة، لا يختلفون في واقع الأمر عن غيرهم من المستشرقين، الذين كتبوا عن الإسلام، إلّا في أنهم لم يشهروا تعصُّبهم ضد هذا الدين وعداءهم له بطريقة مكشوفة، وحاولوا أن يقدّموا آراءهم في صورة تجذب المسلم إليها وتصل إلى عقول الأوروبيّين، وكأنّها حقيقة لا جدال فيها»[١].

هذا، وعلى الرغم مما في دراسات هؤلاء من سلبيّات، إلّا أنّها لا تخلو أيضًا من إيجابيّات مهمّة استفاد منها المسلمون. ففيها –مثلًا- ردود حاسمة على المتعصّبين من بني جلدتهم، وفيها نقد لبعض التهم التي وُجِّهت سابقًا إلى الرسولﷺ، وفيها اعترافات صريحة بعظمة شخصيّتهﷺ.

ثانيًا: الشخصيّة الرسالية لرسول اللهﷺ في نظر المهتدين إلى الإسلام

يتحدّث نجيب العقيقيّ عن هذه الفئة قائلًا: «وفئة خامسة (يعني من المستشرقين) أنصفت الإسلام، وإن لم تَدِن به، قولًا وعملًا وكتابة، فلم يؤخذ عليها هفوة على كلّ ما دَبَّجته فيه، ومنها من ذهب به إخلاصه إلى اعتناقه. من أمثال: بوركهارت، وكرنكوف، وزونستين، وشنيتسر، ودينيه، وفلورى، وميشوبيللر، ومارمادروك، وفيلبي، وليوبولد فايس، وجرمانوس، والعدد العديد من البولونيين...»[٢]. أمّا توماس أرنولد، فقد تحدّث عن المهتدين إلى الإسلام، ممن كانوا يدينون قبل ذلك باليهوديّة أو النصرانيّة، وذكر منهم: «ابن جزلة في القرن الحادي عشر، ويوسف اللبنانيّ والشيخ زيادة بن يحيى في القرن الثالث عشر، وعبد الله بن عبد الله في القرن الخامس عشر، ودرويش علي في القرن السادس عشر، وأحمد بن عبد الله، وهو إنجليزيّ وُلد في كمبردج في القرن السابع عشر»[٣].

---

١. الدسوقي، الفكر الاستشراقيّ تاريخه وتقويمه، ١٦٨-١٦٩.

٢. العقيقي، المستشرقون، ٣: ٦٢١.

٣. أرلوند، الدعوة إلى الإسلام، ٤٧٧.

وقد كان لهؤلاء المهتدين دور مهمّ في الدفاع عن الرسـول ﷺ وعن الإسلام، إذ إنّ عددًا لا يسـتهان به منهم قد كتبوا كتبًا بيّنوا فيها أوّلًا، الأسـباب التي دفعتهم إلى الالتحاق بالإسلام، ودافعوا فيها ثانيًا عن الملّة الإسلاميّة والرسول عليه الصلاة والسلام. منهم على سبيل المثال:

١. علي بن ربَّن الطبريّ

طبيب حكيم، وُلد في أواخر أيام أبي جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ/ ٧٥٤ – ٧٧٥م) أو في أوائـل خلافة المهديّ (١٥٨ - ١٦٩هـ/ ٧٧٥ – ٧٨٥م) من أسرة نصرانيّة[١]. وتولى الكتابة لمازيار ملك طبرستان. ثمّ حدث له ما أزعجه، فغادرها إلى العراق في أيّام المعتصم بالله (٢١٨ - ٢٢٧هـ/ ٨٣٣ – ٨٤٢م)، فأمره بملازمة بابه في بعض أعماله، وأسلم على يديه. وقيل بل أسلم على يد الخليفة المتوكّل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ – ٨٦١م)، وأدخله في جملة ندمائه[٢].

وقـد ألّف عليّ بن ربَّن الطبريّ عدّة كتب، من أهمّها كتـاب (الدين والدولة في إثبات نبوة النبيّ محمّد ﷺ)، وهو يحتوي على مقدّمة وعشرة أبواب وخاتمة. أمّا المقدّمة فقد ذكر فيها أسباب مخالفة غير المسلمين للإسلام، فحدّدها في أربع علل[٣]:

---

١. قال عبد المجيد الشرفي، في ص١٢٨–١٣٥، من كتابه (الفكر الإسـلاميّ في الـردّ على النصارى): «محاولات بعض الدارسين نسـبة الطبريّ إلى اليهوديّة قبل إسـلامه، معارضة بصريح عبارة المؤلّف في العديد من المواطن...». وقال عادل نويهض، في ص٧ – ٨ من تقديمه لكتاب (الدين والدولة في إثبات نبوّة النبيّ محمّد ﷺ، الذي ألّفه علي بن ربّن الطبريّ: «سأورد للقارىء الكريم أيضًا، نصًّا ذكره ابن ربّن م. ن، يثبت أنّه ليس يهوديًّا ولم يكن يهوديًا، وأنّه من أسرة نصرانيّة عريقة في نصرانيّتها، كان هو من حملة لوائها ودعاتها. ثمّ هداه الله إلى الإسلام، فاعتنقه...». وهذا النصّ الذي أشـار إليه عادل نويهض، قد ذكره علي بن ربّن الطبري في الباب السـادس من كتابه (الدين والدولة)، ٩٨، وجاء فيه مـا يلي: «ومن آيات النبيّ ﷺ هذا القرآن، وإنّما صار آية، لمعان لم أرَ أحـدًا من مؤلّفي الكتب في هذا الفنّ فسّرها، بل أطلـق القول والدعوى فيه. وما زلت وأنا نصرانيّ أقـول، ويقول عمّ لي كان من علماء القوم وبُلغائهم، أنّ البلاغات ليست من آيات النبوّة، لأنّها مشتركة في الأمم كلّها، حتى إذا اعتزلت التقليد والألف، وفارقت لزازَ العادة والتربية، وتدبّرت معاني القرآن، علمت أنّ الأمر فيه كما قال أهله...».

٢. الطبري، الديـن والدولة، ٥–١٨ من مقدّمة المحقّق؛ وعبد المجيد الشرفي: الفكر الإسـلاميّ في الردّ على النصارى، ١٢٨–١٣٥.

٣. م. ن، ٣٦.

١. **الأولى**: الشكّ في خبر النبيّ ﷺ.

٢. **والثانية**: الأنفة والعزة.

٣. **والثالثة**: التقليد والألف.

٤. **والرابعة**: البلادة والغباوة.

ورأى أنّهم لو ميّزوا الخبر وعقلوه، لقبلوه ولم يدفعوه، ولما طلبوا ما عند الله بمخالفة أمر الله. ومن ثمّ، شرع يبيّن لهم أصول الأخبار وفروعها وعللها ومجاريها، والوجوه التي بها يُعرف حقّها من باطلها[١]. ثمّ قال: «فهكذا فليفعل، من أحبّ تصفية أخبار الأنبياء وتمييزها. فليبحث عن شهادات الحقّ ومقاييس العبر التي وجدتها متوافرة مجتمعة للنبيّ ﷺ في عشرة معان، لم يجتمع مثلها لأحد قطّ إلّا للمسيح عليه السلام. وأنا مفسّر ذلك وكاشفه للأعيان، ليعلم الناظر فيه أنّ من كنّ تلك الخصال معه ووجدن له وجبت له النبوّة، ولزمت حجّة الله البالغة من كفر به:

أوّلها: دعاؤه ﷺ إلى الفرد الدائم العلّام، العادل الذي لا يُغالب ولا يجار، وموافقته في ذلك جميع الأنبياء.

الثاني: ما كان عليه في نُسكه وعفّته وصدقه، ومحمود سننه وشرائعه.

الثالث: أنّه عليه السلام، أظهر آيات بيّنات لا يأتي بها إلّا أنبياء الله ونخباؤه.

الرابع: أنّه تنبّأ على أشياء غائبة عنه، فصحّت في زمانه.

الخامس: أنّه تنبّأ على حوادث جمّة من حوادث الدنيا ودولها، صحّت بعده.

السادس: في أنّ الكتاب الذي جاء به، آية من آيات النبوّة بالضرورة، وبالحجج التي لا تُدفع.

السابع: أنّ غلبته الأمم، آية بيّنة بالضرورة والحجج التي لا تُدفع.

الثامن: أن دُعاته الذين نقلوا أخباره، خيار الناس وأبرارهم، ومن لا يُظن بأمثالهم الأكاذيب والإفك.

التاسع: في أنّه عليه السلام خاتم الأنبياء، وأنّه لو لم يُبعث، لبطلت نبوّات الأنبياء فيه وفي

---

١. م. ن، ٣٦-٤٦.

إسماعيل عليه السلام.

العاشر: أنّ الأنبياء عليهم السلام قد تنبّأوا عليه قبل ظهوره بدهر طويل، ووصفوا مبعثه وبلده ومسيره، وخضوع الأمم له والملوك لأمته»[1].

وبعد ذلك شرع في تحليل هذه الأمور في عشرة أبواب، جاءت على الشكل التالي[2]:

- **الباب الأوّل**: في توحيده عليه السلام، ودعائه إلى ما دعا إليه إبراهيم وجميع الأنبياء عليهم السلام.
- **والباب الثاني**: في فضائل سننه وشرائعه.
- **والباب الثالث**: في آيات النبيّ صلى الله عليه وآله التي ردّها، وجحدها أهل الكتاب.
- **والباب الرابع**: في أنّه عليه السلام حكى أمورًا غائبة عنه، تمّت في أيّامه.
- **والباب الخامس**: في نبوّات النبيّ عليه السلام التي تمّت بعد وفاته.
- **والباب السادس**: في أمّيّة النبيّ صلى الله عليه وآله، وأن الكتاب الذي أنزله الله عليه فأنطقه به، آية النبوّة.
- **والباب السابع**: في أنّ غلبة النبيّ صلى الله عليه وآله، آية من آيات النبوّة.
- **والباب الثامن**: في أنّ الداعين إلى دينه والشاهدين بحقيقة أمره، كانوا خيار الناس وأبرارهم.
- **والباب التاسع**: في أنّه لو لم يظهر النبيّ صلى الله عليه وآله، لبطلت نبوّات الأنبياء.
- **والباب العاشر**: في نبوّات الأنبياء على النبيّ صلى الله عليه وآله (إسماعيل، وموسى، وداود، وأشعيا، وهوشاع، وميخا، وحبقوق، وصفنيا، وزكريا، وإرميا، وحزقيال، ودانيال، والمسيح).

وقبل أن يختم عليّ بن ربن الطبريّ كتابه هذا، أورد أربعة ردود مهمّة[3]:

أوّلها: الردّ على من ذكر أنّ المهاجرين والأنصار دخلوا في الدين من غير آية.

وثانيها: الردّ على من عاب الإسلام بسنّة من سننه أو شريعة من شرائعه.

وثالثها: الردّ على من أنكر مخالفة النبيّ صلى الله عليه وآله موسى والمسيح عليهما السلام في تغيير سنن التوراة

---

١. م. ن، ٤٦-٤٧.

٢. م. ن، ٥٤-١٨٩.

٣. م. ن، ١٨٩-٢٠٦.

والإنجيل.

ورابعها: الرد على من زعم أن القيامة لم يذكرها أحد غير المسيح عليه السلام.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الردود الأربعة، ليست هي الوحيدة في كتابه، بل له ردّ مهمّ آخر على ثلاث حجج تعلّلت بها النّصارى في تكذيبهم للنبيّ صلى الله عليه وآله[١]:

- **أولاهن**: قولهم إنّا لم نجد أحدًا من الأنبياء تنبّأ عليه قبل مجيئه.
- **والثانية**: قولهم إنّا لم نجد في القرآن ذكر آية ولا نبوة لمن جاء به.
- **والثالثة**: قولهم إنّ المسيح أنبأنا أنّه لا نبيّ بعده.

هـذه باختصـار، بعض النقـاط المهمّة التي تضمّنهـا هذا الكتاب الصغـير الحجم الكثير الفائـدة. وقد مدحه محمّد كرد علي فقال: «ألّف ابن ربّن كثـيرًا في الطبّ والصحّة... وعرفناه بكتاب له صغير أسماه (الدين والدولة)، أثبت فيه النبوّة إثبات العارف بالأديان الأخرى، ولا سـيّما اليهوديّة والنصرانيّة. قيل إنّ الخليفة المتوكّل عاونه في تأليفه. وكتابه هذا دليل ناصع على اضطلاعه بالحكمة، وأنّه انتحل الإسـلام عن بصيرة بعد أن نضج في العلوم وأحفى المشـاكل بحثًا. وقد جوّد الـكلام في (الدين والدولة) على الصحابة، وعرض لجميل سـيرتهم وعفّتهم عـن المال والرغبة عن الرفاهية، كما جوّد في فضل أمّيّة الرسـول. ومـن أجمل ما فيه، نُقولٌ عن الكتاب المقدّس والنبوّات، عليها مسحة من البلاغة أكثر من الترجمات المشهورة لعهدنا، ولعلّها منقولة من الترجمات الضائعة من التوراة والإناجيل، أو أنّها كانت من ترجمته هو، وكان يعرف لغات أخرى مع العربيّة. وينبئـك كتاب ابن ربّن، أنّه من أعظم العلماء في الأديان...»[٢]. وقال عبد المجيد الشرفي: «حَظِيَ هذا الكتاب بعناية كبيرة لدى طائفة من الباحثين، المستشرقين منهم بالخصـوص. فقد ترجمه منغانـا (MANGANA) إلى الإنجليزيّة، ونـشر الترجمة مع هوامش في مانشسـتر سنة (١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م)، ثمّ نشر نصّ الكتاب سنة (١٣٤٢هـ) دون تعليقات في مطبعة المقتطف بمصر... وكان منغانا قد عرّف بالكتاب منذ سـنة (١٣٣٩هـ) (semi-official

١. م. ن، ٤٨-٥٣.

٢. كرد علي، كنوز الأجداد، ٧١-٧٢.

defense of Islam) ودافع عن نسبته إلى علي بن ربّن الطبريّ في فصل كتبه سنة (١٣٤٤هـ)...»[١].

٢. السموأل بن يحيى المغربيّ

كان اسـمه صموئيل (أو شـموائيل) بن يهوذا بن آبون المغربيّ الأندلسيّ، وكان ابنًا لأحد أحبار اليهود الفاسيّين، وكان من أشهر الأطبّاء وألمع علماء الرياضيّات، بالإضافة إلى تبحُّره في علوم الدين اليهوديّ والثقافة اليهوديّة في شـتّى مجالاتها. أصله من المغرب، لكنّه برحه بصحبة والـده، وقصد المـشرق فأقام فترة من الزمن في بغداد، ثمّ ارتحـل عنها إلى المراغة، حيث اعتنق الإسـلام وهداه الله إلى الإيمان، وتسمّى باسم السـموأل بن يحيى بن عبّاس، وتوفّي هناك قريبًا من سنة (٥٧٠هـ/ ١١٧٤م)[٢].

وقد ألّف السموأل كتابين نفيسين:

- **الكتاب الأوّل**: أسماه (إسلام السموأل بن يحيى المغربيّ واقتصاصه رؤياه النبيّ ﷺ). وهو عبارة عن سـيرة ذاتيّة سـطَّرها بقلمه، فذكر فيها كثيرًا من التفاصيل الدقيقة عن حياته، وأسـاتذته، وثقافته، ونشـأته، وأسرته. وتحدّث فيها أيضًا عن كيفيّة انتقاله من اليهوديّة إلى الإسلام، فقال: «... فقرأت كتاب أبي عليّ بن مسكويه، الذي سمّاه (تجارب الأمم)، وطالعت تاريخ الطبريّ وغيرهما من التواريخ. فكانت تمرّ بي -في هذه التواريخ- أخبار النبـيّ ﷺ وغزواته وما أظهر الله له من المعجزات، وما خصّه به من الكرامات، وحباه به من النصر والتأييد في غزوة بدر وغزوة خيبر وغيرهما، وقصّة منشـئه في اليم والضعف، ومعاداة أهله له... وشاهدت المعجزة التي لا تباريها الفصاحة الآدميّة في القرآن، فعلمت صحّة إعجازه»[٣].

وقال كذلك: «فلمّا علمت أنّ اليهود، لهم أسـوة بغيرهم فيما نقلوه عن الآباء والأسـلاف،

---

١. الشرفي، الفكر الإسلاميّ في الردّ على النصارى، ١٢٨-١٣٥.

٢. رزوق، التلمود والصهيونيّة، ٣٦-٣٨؛ والسموأل، إفحام اليهود وقصّة إسلام السموأل واقتصاصه رؤياه النبيّ ﷺ، ١٣ من مقدّمة المحقّق؛ وكحّالة، معجم المؤلفين، ١: ٨٠٠.

٣. السموأل، إفحام اليهود وقصّة إسلام السموأل بن يحيى المغربيّ واقتصاصه رؤياه النبيّ ﷺ، ٥٢.

علمت أنّه ليس بأيديهم حجّة صحيحة بنبوّة موسى ﵇ إلّا شهادة التواتر. وهذا التواتر موجود لعيسى ومحمّد، كوجوده لموسى عليهم السلام أجمعين. فإن كان التواتر يفيد تصديقًا، فالثلاثة صادقون، ونبوّتهم معًا صحيحة. وعلمت -أيضًا- أنّي لم أرَ موسى بعيني، ولم أشاهد معجزاته، ولا معجزات غيره من الأنبياء عليهم السلام، ولولا النقل، وتقليد الناقلين، لما عرفنا شيئًا من ذلك. فعلمت أنّه لا يجوز للعاقل أن يصدّق بواحد، ويكذّب بواحد من هؤلاء الأنبياء عليهم السلام، لأنّه لم يرَ أحدهم، ولا شاهد أحواله، إلّا بالنقل. وشهادة التواتر موجودة لثلاثتهم، فليس من العقل ولا من الحكمة أن يصدَّق أحدهم ويكذَّب الباقون، بل الواجب عقلًا إمّا تصديق الكلّ، وإمّا تكذيب الكلّ. فأمّا تكذيب الكلّ، فإنّ العقل لا يوجبه أيضًا، لأنّا إنّما نجدهم قد أتوا بمكارم الأخلاق، وندبوا إلى الفضائل، ونهوا عن الرذائل، ولأنّا نجدهم ساسوا العالم بسياسة بها صلاح حال أهله. فصحّ عندي، بالدليل القاطع، نبوّة المسيح والمصطفى ﷺ، وآمنت بهما. فمكثت برهة أعتقد ذلك، من غير أن ألتزم الفرائض الإسلاميّة، مراقبة لأبي، وذلك أنّه كان شديد الحبّ لي، قليل الصبر عنّي، كثير البرّ بي... فمكثت مدّة طويلة، لا يُفتح عليّ وجه الهداية، ولا تنحلّ عني هذه الشبهة، وهي مراقبة أبي. إلى أن حالت الأسفار بيني وبينه، وبعُدت داري عن داره، وأنا مقيم على مراقبته، والتذمُّم من أن أفجعه بنفسي، وحان وقت الهداية، وجاءتني الموعظة الإلهيّة برؤيتي للنبيّ ﷺ في المنام، ليلة الجمعة تاسع ذي الحجّة، سنة ثمان وخمسين وخمسمئة، وكان ذلك بمراغة من أذربيجان»[1].

ثمّ ختم كلامه، بما يدلّ على أن انتقاله من اليهوديّة إلى الإسلام لم يكن من أجل هدف معيّن، وإنّما كان عن إيمان صحيح برسالة محمّد ﷺ، بعد أن نظر وفكر وتدبّر، وأيقن بالبرهان القاطع بطلان ما عليه اليهود، لدرجة أنّه لم يُذِع منامَيه اللذين رأى فيهما شموائيل النبيّ ومحمّد المصطفى ﷺ، إلّا بعد أربع سنوات من إعلان إسلامه، حتى لا يظنّ الناس أنّه قد ترك دينه لأضغاث أحلام وهواجس غامضة. قال رحمه الله: «وأما المنام الأول، والمنام الثاني، فإني لم أذكرهما للصاحب، ولا لغيره من أهل مراغة إلى انقضاء أربع سنين من أوان رؤيتهما. وكان ذلك

---

١. السموأل، إفحام اليهود وقصّة إسلام السموأل بن يحيى المغربيّ واقتصاصه رؤياه النبي ﷺ، ٥٧-٥٩.

لشيئين: أحدهما، أني كرهت أن أذكر أمرًا، لا يقوم عليه البرهان، فربما يُسرع خاطر من يسمعه إلى تكذيبه لأنه أمر نادر، قليلًا ما يتّفق، إذ كان العاقل يكره أن يعرض كلامه للتكذيب، سرًا أو علانية. والثاني، أنّي كرهت أن يصل خبر المنامين إلى من يحسدني في البلاد على ما فضّلني الله به من العلم والحرمة، فيجعل ذلك طريقًا إلى التشنيع عليّ، والإزراء على مذهبي، فيقول: إنّ فلانًا ترك دينه لمنام رآه، وانخدع لأضغاث أحلام. فأخفيت ذلك إلى أن اشتهر كتاب (إفحام اليهود) وكثرت نسخه، وقرأه عليَّ جماعة كثيرة من الناس. فلمّا تحقّق الناس، أعني أنّ انتقالي من مذهب اليهود، إنّما كان بدليل وبرهان وحجج قطعيّة عرفتها، وأنّي كنت أخفي ذلك ولا أبوح به مدّة، مراقبة لأبي وبرًّا به، فحينئذ أظهرت قصة المنامين وأوضحت أنّهما كانا موعظة من الله تعالى، وتنبيهًا على ما يجب تقديمه ولا يحلّ لي تأخيره، بسبب والد أو غيره... فليعلم –الآن– من يقرأ هذه الأوراق، أنّ المنام لم يكن باعثًا على ترك المذهب الأوّل، فإنّ العاقل لا يجوز أن ينخدع عن أحواله بالمنامات والأحلام، من غير برهان ولا دليل، لكنّي كنت قد عرفت قبل ذلك بزمان طويل، الحجج والبراهين والأدلّة على نبوّة سيدنا محمّد ﷺ. فتلك الحجج والبراهين هي سبب الانتقال والهداية، وأمّا المنام فإنّما كانت فائدته الانتباه والازدجار من التمادي في الغفلة والتربُّص بإعلان كلمة الحقّ بعد هذا، ارتقابًا لموت أبي. فالحمد لله على الإسلام وكلمة الحقّ ونور الإيمان ونور الهداية، وأسأله الإرشاد لما يرضيه بمحمّد ﷺ وسلّم تسليمًا كثيرًا»[١].

- **الكتاب الثاني**: أسماه (إفحام اليهود) أو (بذل المجهود في إفحام اليهود)، ووضعه أساسًا للردّ على أهل اللجاج والعناد، ولإظهار ما يعتور كلمتهم من الفساد[٢]. وناقش فيه القضايا التي أثارها اليهود وحرّفوا فيها التوراة، مثل قضيّة النسخ. ففنّد دعواهم: أنّ النسخ بداء، وأنّ البداء محال على الله تعالى، وأنّه سبحانه –في زعمهم– لا يقدر أن ينسخ شيئًا مما شرّعه لعباده. وحاجّهم في ذلك بنصوص من كتابهم، وألزمهم القول به، كما

---

١. السموأل، إفحام اليهود وقصّة إسلام السموأل بن يحيى المغربيّ واقتصاصه رؤياه النبيّ ﷺ، ٧٢-٧٤.

٢. قال السموأل في ص٨٦، من كتابه (إفحام اليهود): «والغرض الأقصى من إنشاء هذه الكلمة، الردّ على أهل اللجاج والعناد، وأن تُظهر ما يعتور كلمتهم من الفساد...».

ألزمهم نبوّة عيسى ومحمّد عليهما السلام. وذكر الآيات والعلامات -التي في التوراة- الدالّة على نبوّة سيدنا محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله. وذكر الموضع الذي أشير فيه في التوراة إلى اسمه، والموضع الذي أشير فيه إلى نبوّة الكليم والمسيح والمصطفى عليهم السلام، وكشف جانبًا من كفرهم وتبديلهم، وأعرب عن بعض فضائحهم ومعتقدات فرقهم. وتعرّض لمعتقداتهم في عيسى ومحمّد عليهما السلام، فأبان مكنونات نفوسهم، وأظهر أسرار كتبهم. وأبان السبب في التبديل، وقصّة تزييف التوراة، ودور عزْرا والفرّيسيّين في ذلك.

وقد خُتم كتاب (إفحام اليهود) برسالة من يهوديّ للإمام السموأل أجابه عليها، وذكر أنّ استخدامه للعقل في منهجه العلميّ أثمر وصولًا إلى الدين الحقّ.

قال محمّد عبد الله الشرقاوي في مقدّمة تحقيقه لكتاب (مسالك النظر في نبوّة سيّد البشر): «كتاب السموأل (إفحام اليهود)، قد أثّر في اليهود تأثيرًا واسع المدى، مما دفعهم إلى تكليف أحد فلاسفتهم المسمّى (ابن كمونة) بالردّ عليه في كتابه الموسوم بـ(تنقيح الأبحاث للملل الثلاث). وقد كان (ابن كمونة) هذا معاصرًا لصاحبنا سعيد بن حسن: الأوّل يكتب في بغداد ويجادل المسلمين، ويردّ على الحبر المهتدي السموأل. والآخر يكتب في دمشق كتاب (مسالك النظر)»[1].

٣. سعيد بن حسن الإسكندرانيّ

كان من علماء بني إسرائيل، فمنَّ الله سبحانه عليه بالإسلام. وكان سببه أن حصل له ضعف، فدخل عليه طبيب، فجُهّز له كفن الموت، فرأى في منامه قائلًا يقول: اقرأ سورة الحمد -يعني سورة الفاتحة- تخلص من الموت. فلما استيقظ من منامه، طلب من ساعته عدلًا من عدول المسلمين، وكان جاره، فمسك بيده قائلًا: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمّدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله. وأخذ سعيد يكرّر ويقول: يا مثبت القلوب ثبتني على الإيمان. فلما دخل إلى الجامع، رأى المسلمين مصطفّين كصفوف الملائكة، وقائلًا يقول له في سرّه: هذه هي الأمة التي بشّرت بظهورها الأنبياء عليهم

١. الإسكندراني، مسالك النظر في نبوة سيد البشر، ٣٤-٣٥، من القسم الأول (دراسات بين يدَي الرسالة).

أفضل الصلاة والسلام. فلما خرج الخطيب لابسًا شعار السواد، حصل عند سعيد منه هيبة عظيمة، فلما ضرب المنبر بسيفه زعزعت ضربته جميع أعضائه، وكان الخطيب يومئذ (ابن الموفّق) بثغر الإسكندريّة. ولما قامت الصلاة، حصل له حال عظيم، بحيث كان يرى صفوف المسلمين كصفوف الملائكة، يتجلّى الله سبحانه وتعالى لركوعهم وسجودهم، وقائلًا يقول في سرّه: إن كانت بنو إسرائيل حصل لهم خطاب الله في الدهر مرّتين، فقد حصل لهذه الأمّة خطاب الله في كلّ صلاة. ولما سمع القرآن في شهر رمضان، رأى فيه الفصاحة العظيمة والبلاغة والإعجاز العظيم، وتبيّن له أنّ القصّة التي تُذكر في التوراة في كرّاسين، مذكورة في القرآن في آية أو آيتين[١].

وقد كان إسلام سعيد بن حسن الإسكندرانيّ في مستهلّ شعبان سنة ٦٩٧هـ الموافق لشهر مايو سنة ١٢٩٨م. وبعد إسلامه باثنين وعشرين سنة، ألّف كتابه المسمّى (مسالك النظر في نبوّة سيّد البشر) في جامع بني أميّة بدمشق، وقال في خاتمته: «اعلم أنّ جميع ما وضعته في هذا المختصر، هو ما جاء في التوراة وصحف الأنبياء، لكنّي جمعته ورتبته واستخرجته من اللغات العبرانيّة والسريانيّة إلى اللسان العربيّ المبين، الذي نطق به سيّد الأوّلين والآخرين، وجعلته نزهة للناظرين. وربما سمّيته (المحيط)، فإنّه أحاط بجميع قواعد العلوم اليقينيّة، والعقود الإيمانيّة، والنصائح الدينيّة، والمقامات العامّة، والسلوكات الخاصّة. وصلّى الله على سيدنا محمّد وآله وسلّم»[٢]. أمّا في مقدّمة الكتاب، فقد ابتدأ بالبسملة والحمدلة والتصلية، ثمّ استرسل في إظهار نبوّة سيّدنا محمّد ﷺ، فذكر ما يدلّ على نبوّته في التوراة، في قصص كلٍّ من آدم ونوح وإبراهيم وهاجر ويعقوب وبلعام وموسى، وما يدلّ على نبوّته في قصّة يوشع مع العمالقة، وما يدلّ على نبوّته في زبور داود، وصحف أشعيا، وصحف إبراهيم، وصحف إلياس، وصحف حزقيل، وما يدلّ على نبوّته في قصة الملك (آحاب) مع النبيّ ميخا، وفي قصّة الملك منشا، وقصّة النبيّ (عوبذياهو)، وقصّة الملك (ياربعام) مع الخضر، وقصّة الملك بختنصر مع النبيّ دانيال، وما يدلّ

١. م. ن، ٧٦-٧٧.

٢. م. ن، ٨١.

على نبوّته في اســمه المذكور في التوراة وصحف الأنبياء[١]. ثمّ أظهر سعيد الإسكندرانيّ في كتابه هــذا، غيرةً دينيّة قويّة، تجلّت في دعوتــه الصريحة إلى عقد مجلس علميّ يحضره علماء من اليهود والنّصارى والمسلمين للمناقشة والحوار ولتناظر والجدال[٢]. وأبرز كراهيته العميقة ونفوره من الوثنيّــة والأوثان[٣]. وأكّــد اختلاف علماء الديانة اليهوديّة في ذات الباري ســبحانه وتعالى وفي صفاته، وكذلك اختلافهم في كلام الباري ســبحانه وتعالى، وأنّ ســبب ذلك اتباع الفلاســفة واعتقادهم لمذهبهم[٤]. ثمّ شرح تصوّره للفلسفة الوثنيّة أو الوثنيّة الفلسفيّة وفرقها ومقولاتها[٥]، وألمح في الأخير إلى مكانة النبوّة وأنّها فوق الفلســفة، فقال: «ومن الناس من يرى منامًا ويعتقد أنّه في اليقظة، فالنبوّة أعظم من اليقظة بلا قياس»[٦].

٤. عبد الحقّ الإسلاميّ

أبــو محمّد المكناسيّ، كان حيًّا ســنة (٧٦١هـ/ ١٣٦٠م)[٧]، وكان يهوديًّا فأســلم. له كتاب مهمّ تحت عنوان (الحُســام الممدود في الردّ على اليهود) أو (الســيف الممدود في الردّ على أحبار اليهود). قال في مقدّمته: إنّ الله تعالى قد أطلعه –قبل أن يبدأ في تأليف هذا الكتاب بســتة عشر ســنة– على الحقّ الذي لا يشــكّ فيه عاقل، ولا يرتاب فيه إلّا أهل الباطل، وهو الإيمان بسيّدنا ونبينا ومولانا محمّد ﷺ، والاقتداء به في جميع الأحكام. فكتم ذلك وأخفاه، ولم يبده ولا أفشاه، إلى أن وفّقه الله ســبحانه، وألهمه ونبّهــه إلى إذاعة توحيده، والنطق بتنزيهه وتمجيده، وإشــاعة الإيمان برسوله محمّد ﷺ. فبادر إلى الإعلان بكلمة التوحيد، ونطق بالتنزيه والتمجيد، وشهد أن

١. م. ن، ٤٣–٧٠.

٢. م. ن، ٨٠.

٣. م. ن، ٧٩–٨٠.

٤. م. ن، ٧١– ٧٢.

٥. م. ن، ٧٢–٧٥.

٦. م. ن، ٧٦.

٧. كحالة، معجم المؤلفين، ٢: ٥٧ –٥٨.

لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمّدًا عبده ورسوله[١]. وقد أسلم على يديه –بعد أنْ منَّ الله عليه بالدخول في الإسلام– جميع أهله وولده، وكلّ من سبقت له السعادة ممن كان يلازمه. ثمّ أشار عليه بعض طلبة سبتة، أن يؤلّف جزءًا في بيان ما عليه اليهود من الضلالة والكفر الشنيع والشرك البشيع، وما هم معتقدون من الكذب المحض في إنكار نبوّة سيّدنا ومولانا محمّد ﷺ، ليكون ماحيًا لاعتقادهم، مُحمدًا لإثارة فسادهم. فاستجاب لما أشير به عليه، وألّف هذا الكتاب المسمّى بـ(الحُسام)، واستدلّ فيه على اليهود بالأدلّة الساطعة والبراهين القاطعة، وأبان فساد عقولهم وعدم أدبهم في مقولهم، واقتصر على ما في كتبهم المبدّلة مما لا يسعهم إنكاره ولا النزاع فيه بوجه ولا بحال، حتى يكون أنكى لهم وأبلغ في الحجّة عليهم[٢]. وقد رأى عبد الحقّ الإسلاميّ –رحمه الله– أنّ الكلام ينحصر مع اليهود في خمسة أبواب[٣]:

الباب الأوّل: في تقرير المواضع التي في كتبهم، الدالّة على ثبوت نبوّة سيّدنا ومولانا محمّد ﷺ، وأنّه مُرْسَل لكافّة الخلق.

والباب الثاني: في نسخ شريعته لجميع الشرائع.

والباب الثالث: فيما في توراتهم المبدلة من الشرك والتجسيم والتبديل والتغيير، مما تُغلق منه الآذان، ويُنزّه عنه الواحد الأحد الفرد الصمد الرحيم الرحمن.

والباب الرابع: في وقوعهم في الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وملوكهم ومن ليس منهم.

والباب الخامس: فيما في كتبهم من تعظيم النبيّ ﷺ في صلواتهم، وإسرائه ومعجزاته وآياته وأماراته.

وهذا الباب الأخير –كما يقول– قد أتى به آخِرًا للتبرك بذكر سيّدنا ونبيّنا ومولانا محمّد ﷺ، ليكون المبتدأ والمنتهى؛ ولأنّ المقصود الأعظم عنده من تأليفه لهذا الكتاب، إنّما هو بيان جحدهم

١. الإسلامي، عبد الحق، السيف الممدود في الردّ على أحبار اليهود، ٢.

٢. م. ن، ٣.

٣. م. ن، ٣-٤.

للنبيّ ﷺ وأنّه الثابت في كتبهم، فكان البدء به أوّلًا أوجب، والختم به آخرًا أشكل وأنسب[١].

٥. إتيين دينيه

وُلد بباريس سنة (١٢٧٧هـ/ ١٨٦١م) من أبوين مسيحيّين، وتلقّى العقائد المسيحيّة ومارسها[٢]. وتعلّم في فرنسا، ثمّ قصد الجزائر، فكان يقضي في بلدة بوسعادة نصف السنة من كلّ عام. وابتنى بها قبرًا، وأشهر إسلامه، وتسمّى بناصر الدين (١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م)، وحجّ إلى بيت الله الحرام (١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م)[٣]. وتوفّي سنة (١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م) بباريس[٤]. له كتاب في السيرة النبويّة، وضعه باللغة الفرنسيّة بمعاونة صديقه الجزائريّ الحميم سليمان بن إبراهيم، وأهداه لأرواح الجنود الإسلاميّة التي استشهدت وهي تحارب في صفوف الفرنسيّين. ومدح فيه الرسول ﷺ وأثنى عليه، وهاجم المستشرقين الذين أساؤوا إليه ﷺ، فقال: «كانت الخلوة، لمحمّد، أعظم مربّ، فقد صفّت قلبه من كلّ مشاغل هذا العالم؛ ولذلك أطلقت عليه الآثار (صفاء الصفاء). وتشرّبت روحه، رويدًا رويدًا، روح الصحراء التي لا تحدّ، فبصّرته بعظمة الله اللانهائيّة. وفي الصحراء اتصلت أسرار الطبيعة بأعماق نفسه، وغمرته في قوّة، حتى لقد أوشكت أن تخرج من فمه تلك الحقائق الخالدة التي انتزعت من (كارلايل)، المفكّر الإنجليزيّ المشهور، صيحة الإعجاب التي يقول فيها: حقًّا إنّ أحاديث هذا الرجل قد صدرت مباشرة عن قلب الطبيعة، ومن الطبيعيّ أن تجتذب أفئدة بني البشر فيستمعوا إليها، ويجب أن يستمعوا إليها أكثر مما يستمعون إلى غيرها، فكلّ ما عداها هباء إذا قورن بها»[٥]. وقال أيضًا: «إنّه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين أنّ محمّدًا قد انتهز فرصة الخلوة هذه، فروى ورتّب عمله المستقبل. بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فوسوس بأنّ محمّدًا ألّف في تلك الفترة القرآن كله!! أحقًّا لم يلاحظوا أنّ هذا الكتاب الإلهيّ خالٍ من أيّ خطّة سابقة على وجوده، مرسومة على

١. م. ن، ٢٤.
٢. دينيه، محمد رسول الله ﷺ، ٧ – ٩، من مقدّمة المترجمَين.
٣. العقيقي، المستشرقون، ١: ٢٢٨.
٤. دينيه، محمد رسول الله ﷺ، ٤١، من مقدّمة المترجمَين.
٥. م. ن، ١٠٦.

نسق المناهج الإنسانيّة، وأنّ كلّ سورة من سوره منفصلة عن غيرها، وخاصّة بحادثة وقعت بعد الرسالة طيلة فترة تزيد على عشرين عامًا، وأنّه كان من المستحيل على محمّد ﷺ أن يتوقّع ذلك ويتنبّأ به؟ ولكنّهم في جهلهم بالعقليّة العربيّة، لم يجدوا غير ذلك تعليلًا لهذا التحنُّث الطويل...»[١].

٦. ليوبولد فايس

ترك بلاده النمسا في عام (١٣٤١هـ/ ١٩٢٢م)، ليتجوّل في إفريقيا وآسيا بصفته مراسلًا لبعض أمّهات الصحف الأوروبيّة. ومنذ ذلك الحين، قضى كلذ أوقاته تقريبًا في الشرق الإسلاميّ واحتكّ بشعوبه، فرأى عندهم نظامًا اجتماعيًّا، ونظرة إلى الحياة تختلف اختلافًا أساسيًا مما هي الحال في أوروبا. ونشأ في نفسه ميل إلى إدراك للحياة أكثر هدوءًا وإنسانيّة، إذا قيست تلك الحياة بطريقة الحياة الآليّة العجلى في أوروبا. ثمّ قاده هذا الميل إلى النظر في أسباب هذا الاختلاف. وأصبح شديد الاهتمام بتعاليم الإسلام. إلّا أنّ هذا الميل لم يكن كافيًا ليجذبه إلى حظيرة الإسلام. لكنّه كان كافيًا -على الأقلّ- لأن يعرض أمامه رأيًا جديدًا في إمكان تنظيم الحياة الإنسانيّة مع أقلّ قدر ممكن من النزاع الداخليّ، وأكبر قدر ممكن من الشعور الأخويّ الحقيقيّ. وقد شجّعه هذا الاكتشاف على المضيّ قدمًا في سبيل البحث عن الحقيقة، لكن الذي حيَّره كان ذلك التباعد البيّن بين الماضي الإسلاميّ وحاضره. ومن أجل ذلك، حاول الاقتراب من هذه المشكلة البادية أمامه، وتخيّل نفسه واحدًا من الذين يضمّهم الإسلام. وبفضل هذه التجربة العقليّة استطاع أن يكتشف الحلّ الصحيح في وقت قصير. لقد تحقّق أنّ ثمّة سببًا واحدًا فقط للانحلال الاجتماعيّ والثقافيّ بين المسلمين، وأنّ ذلك السبب يرجع إلى الحقيقة الدالّة على أنّ المسلمين أخذوا شيئًا فشيئًا يتركون اتّباع روح التعاليم الإسلاميّة. فنتج من ذلك، أنّ الإسلام ظلّ بعد ذلك موجودًا، ولكنّه كان جسدًا بلا روح. ومن ثم أصبح -وهو غير المسلم- يتكلم إلى المسلمين أنفسهم، مشفقًا على الإسلام من إهمالهم وتراخيهم. وفي خريف عام ١٩٢٥م

---

١. م. ن، ١٠٧.

(١٣٤٤هـ) تلقّاه حاكم إداريّ شاب —وهو يومذاك في جبال الأفغان– بقوله: «ولكنّك مسلم، غير أنك لا تعرف ذلك من نفسك». فأثّرت فيه هذه الكلمات، غير أنّه بقي صامتًا. ولمّا عاد إلى أوروبـا مرّة ثانية في عام (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م)، وجد أنّ النتيجة المنطقيّة الوحيدة لميله هذا أن يعتنق الإسلام، فاعتنقه وتسمّى باسم (محمّد أسد)[١].

ومنذ ذلك الحين، سعى إلى أن يتعلّم من الإسلام كلّ ما يقدر عليه. فدرس القرآن الكريم، والحديث النبويّ الشريف، واللغة العربيّة، وتاريخ الإسـلام، وكثيرًا مما كُتب عن الإسـلام أو كُتب في الردّ عليه. وقضى أكثر من خمس سنوات في الحجاز ونجد، ليطمئن قلبه بشيء من البيئة الأصليّة للدين الإسـلاميّ. وتمكّن مـن المقارنة بين أكثر وجهات النظـر الدينيّة والاجتماعيّة، التي كانت تسود العالم الإسلاميّ في أيّامه. وقد خلّفت فيه هذه الدراسات والمقارنات، العقيدة الراسخة بأنّ الإسلام من وجهتيه الروحيّة والاجتماعيّة لا يزال بالرغم من جميع العقبات التي خلفها تأخّر المسـلمين، أعظم قوّة نهّاضة بالهمم عرفها البشر. عند ذلك، تجمّعت رغباته كلّها حول مسألة بعثه من جديد، فألّف كتابه المسمى بـ(الإسلام على مفترق الطرق)، واعتبره خطوة متواضعة نحو ذلك الهدف العظيم[٢]. يقول في مقدّمته: «إنّ هذا الكتاب... لن يتّسع إلّا للبحث في مشـكلة واحدة، من تلك المشاكل التي تواجه المسلمين اليوم: تلك هي، الموقف الذي يجب أن يتّخذه المسـلمون اتجاه المدنيّة الأوروبيّة. على أن تشعّب الموضوع، اقتضى أن يتناول البحث بعض النواحي الأساسيّة في الإسـلام، وعلى الأخصّ فيما يتعلّق بالسنّة»[٣]. ويقول متحدّثًا فيه عن السـنّة النبويّة: «لقد كانت السـنّة مفتاحًا لفهم النهضة الإسلاميّة منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا، فلماذا لا تكون مفتاحًا لفهم انحلالنا الحاضر؟ إنّ العمل بسنّة رسول الله ﷺ هو عمل على حفظ كيان الإسلام وعلى تقدّمه، وإنّ ترك السنّة هو انحلال الإسلام...»[٤]. ويقول متحدّثًا فيه

١. أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ١٢-١٤.

٢. اسد، الإسلام على مفترق الطرق، ١٥-١٦.

٣. م. ن، ١١-١٢.

٤. م. ن، ٨٧.

عن شخصيّة الرسول ﷺ: «إنّ الأثر العظيم الذي تركته شخصيّة الرسول ﷺ في أولئك الرجال، إنّما هي حقيقة من أبرز حقائق التاريخ الإنسانيّ، ثمّ هي فوق ذلك ثابتة بالوثائق التاريخيّة...»[١].

٧. الحسن بن أيّوب، ويحيى ابن جزلة، ونصر بن يحيى المتطبّب

هؤلاء الثلاثة، لم يتيسّر لي الاطلاع على ما كتبوه دفاعًا عن الرسول ﷺ. ومن ثمّ، سأكتفي بنقل ما حكاه بعض العلماء في شأنهم:

٨. الحسن بن أيّوب (ت نحو ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م)

قال ابن تيميّة: «ومن أعلم الناس بمقالاتهم (يعني النصارى) من كان من علمائهم، وأسلم على بصيرة بعد الخبرة بكتبهم ومقالاتهم، كالحسن بن أيّوب، الذي كتب رسالة إلى أخيه عليّ بن أيّوب يذكر فيها سبب إسلامه، ويذكر الأدلّة على بطلان دين النّصارى وصحّة دين الإسلام»[٢].

٩. يحيى بن جزْلة (ت ٤٩٣هـ/ ١١٠٠م)

قال القنّوجي (ت ١٣٠٧هـ): «أبو عليّ يحيى بن عيسى بن جزْلة الطبيب، صاحب كتاب (المنهاج)، الذي جمع فيه من أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئًا كثيرًا. كان نصرانيًّا، ثم أسلم وصنّف رسالة في الردّ على النصارى، وبيّن عوار مذاهبهم، ومدح فيها الإسلام، وأقام الحجّة على أنّه الدين الحقّ، وذكر فيها ما قرأه في التوراة والإنجيل من ظهور النبيّ ﷺ، وأنّه نبيّ مبعوث، وأنّ اليهود والنّصارى أخفوا ذلك ولم يُظهروه. ثمّ ذكر فيها معايب اليهود والنصارى، وهي رسالة حسنة أجاد فيها...»[٣].

١٠. نصر بن يحيى المتطبّب:

قال حاجي خليفة: «(النصيحة الإيمانيّة في فضيحة الملّة النصرانيّة)، تأليف نصر بن يحيى بن

---

١. م. ن، ٩٤.

٢. ابن تيميّة، الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح، ٢: ٣١٣.

٣. القنّوجيّ، أبجد العلوم، ٢: ١١٧.

عيسى بن سعيد المتطبّب المهتدي، أوّله الحمد لله الذي فضّل دين الإسلام إلخ... وهي مشتملة على أربعة فصول: الأوّل في اعتقاد النّصارى ومذاهبهم، والثاني في تناقض كلامهم. الثالث في معجزات المسيح عليه السلام. الرابع في الدلائل على نبوّة محمّد ﷺ»[1].

هــذه إذن، بعض الأمثلة الدالّة على ما بذله المهتدون إلى الإســلام من جهد في الدفاع عنه، وفي الكشـف عن البشــارات بنبوّة الرسـول ﷺ الموجودة في التوراة والإنجيل وكتب الأنبياء عليهم الســلام بفضل معرفتهم الكبيرة للّغتين العبرانية والسريانيّة وغيرهما، وبفضل تضلُّعهم في الثقافتين اليهوديّة والنصرانيّة.

١. حاجي خليفة، كشف الظنون، ٢: ١٩٥٧-١٩٥٨.

الخاتمة

في ختام هذه الدراسة التي حاولت أن تُسلّط الضوء على شخصيّة رسول الله صلّى الله عليه وآله في نظر المستشرقين الذين حاولوا أن يكونوا موضوعييّن ومنصفين، وبعض الباحثين والعلماء الذين هداهم البحث إلى اعتناق الدين الإسلاميّ. وقد اتضح أنّ المستشرقين الموسومين بالإنصاف في الدراسة كان إنصافهم نسبيًّا؛ بسبب ركونهم إلى النظرة الماديّة للوجود، فعلى الرغم من أنّهم أنصفوا شخصيّة النبيّ ﷺ في مواضع عدّة، إلّا أنّ إنصافهم لم يقدهم للاعتراف بنبوّة محمّد ﷺ، وما اعترافهم إلّا نوع من الموضوعيّة التي يجب على كلّ باحث أن يلتزم بها. وأمّا المهتدون إلى الإسلام، وهم كانوا علماء في دياناتهم، فقد اغتنموا ما يمتلكونه من علوم وفهم للديانات الأخرى لأجل إثبات خاتميّة الإسلام لتلك الديانات وشموليّته لها وعدم تحريفه كما حُرّفت هي.

وبعيدًا عن افتراءات المستشرقين حاولت هذه الدراسة تسليط الضوء عن جانب مضيء من نظرة الآخر إلى الدين الإسلاميّ ونبيّة الأعظم صلّى الله عليه وآله، ونرجو أن نكون قدّ وُفّقنا في مسعانا والحمد لله ربّ العالمين.

لائحة المصادر والمراجع

١. القرآن الكريم.

٢. أسـد، محمّد، (ليوبولد فايس)، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: عمر فروخ، بيروت، دار العلم للملايين، ط٩، ١٩٧٧م.

٣. الإسكندرانيّ، سعيد بن حسن، مسالك النظر في نبوة سيّد البشر، تحقيق: محمّد عبد الله الشرقاوي، القاهرة: مكتبة الزهراء، ١٩٩٠م.

٤. الإسـلاميّ، عبد الحقّ، السـيف الممدود في الردّ على أحبار اليهود، طبعـة حجرية، بالخزانة العامّة بالرباط، تحت رقم ٢٩٧٧/ ٣.

٥. أمسـترونج، كارين، سـيرة النبيّ محمّد، ترجمة: فاطمة نصر ومحمّد عناني، القاهرة، شركة سـطور، ط٢، ١٩٩٨م.

٦. بودلي، رونالد فيكتور، الرسـول: حياة محمّد، ترجمة: محمّد محمّد فرج، عبد الحميد جودة السحار، تونس/ القاهرة، دار سحنون/ مكتبة مصر.

٧. الجبري، عبد المتعال محمّد، السيرة النبويّة وأوهام المستشرقين، القاهرة: مكتبة وهبة، ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٨. جيورجيو، كونستانس، نظرة جديدة في سيرة رسول الله، تعريب: الدكتور محمّد التونجي، بيروت، الدار العربيّة للموسوعات، ط١، ١٩٨٣م.

٩. حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشـف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تصحيح وتعليق حواشي: محمد شرف الدين يالتقايا، إسطنبول، وكالة المعارف بإسطنبول، ١٩٤١ م.

١٠. الدسـوقي، محمّد، الفكر الاسـتشراقيّ تاريخه وتقويمه، المنصورة، دار الوفاء، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١١. رزوق، أسعد، التلمود والصهيونيّة، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط٢، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

١٢. الطبري، علي ابن ربّن، الدين والدولة في إثبات نبوة النبيّ محمّد ﷺ، تحقيق: عادل نويهض، بيروت، دار الآفاق الجديدة، ط٤، ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.

١٣. القنوجي، صديق بن حسن، أبجد العلوم، تحقيق عبد الجبّار زكّار، بيروت، دار الكتب العلميّة، ١٩٧٨م.
١٤. كاهن، كلود، تاريخ العرب والشعوب الإسلاميّة منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطوريّة العثمانيّة، ترجمة: بدر الدين القاسم، بيروت، دار الحقيقة، ط٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
١٥. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، مؤسّسة الرسالة، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
١٦. كرد علي، محمّد، كنوز الأجداد، دمشق، المجمع العلميّ العربيّ، ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠م).
١٧. لوقا، نظمي، محمّد الرسالة والرسول، بيروت، الشركة العربيّة، ط١، ١٩٥٩م.
١٨. مغربي، السموأل بن يحيى، إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل واقتصاصه رؤياه النبيّ ﷺ، تحقيق: محمّد عبد الله الشرقاوي، الرياض، الرئاسة العامّة لإدارات البحوث العلميّة والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط٢، ١٤٠٧ هـ.
١٩. يونغ، لويس، العرب وأوروبا، ترجمة: ميشيل أزرق، مراجعة: محمّد قجة، تقديم: عبد السلام العجيلي، بيروت، دار الطليعة، ط١، ١٩٧٩م.